الفصل السادس عشر

الجدال بالتي هي أحسن

تمهيد

● الاختلاف بين أفراد البشر وجماعاتهم فطرة . ولهذا كان الجدال ظاهرة بشرية عامة ، فقال خالق البشر ﷻ ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٤) وعلى هذا يجب أن يكون هدفنا تهذيب الخلاف ، وتقنين الجدل ، لا القضاء على الخلاف والجدل ، فطلب ذلك هو طلب للمستحيل ، لأنه طلب تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تتغير بأية وسيلة من وسائل التغيير ، ولا فائدة من تغييرها ألبتة .

● والداعية يواجه المخالفين من المسلمين ومن غير المسلمين ، ويواجه اليوم صُنوفاً من الذين يحملون أسماء إسلامية ، من أبناء جلدتنا ، من العلمانيين «الاجتزائيين» الذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعض ، ومن الماديين والمنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام ويعملون على إزاحته من حياة المسلمين ، كما يواجه الداعية أرتالاً من المستشرقين والمنصِّرين الأجانب ، وأعداداً من الكُتاب والصحافيين والأكاديميين الأمريكيين والأوربيين ، والفنانين المفسدين ، وفئات معادية أخرى ، وهم يجادلون المسلمين متسلحين بالعلوم التجريبية والفلسفات الحديثة والمعاصرة .

● فطوفان من الجدل يغمر الساحات الفكرية ويُغرق الشعوب المسلمة ، عبر الصحافة والإذاعة والتلفاز والسينما والمسرح ، والقنوات الفضائية . وقد رأينا كيف كانت التغيرات العميقة الواسعة الشاملة في حياة المسلمين ، أفراداً وجماعات ، في

الاعتقاد والسلوك والقوانين والدساتير والعادات والتقاليد ، والأزياء والعمارة والفنون ، والآداب ، وكل ناحية من نواحي الحياة ظاهرها وباطنها[1].

● ولم يقع للأمة المسلمة على امتداد تاريخها أن واجهت مثل هذا الطوفان ، فكان على الدعاة قبول تلك التحديات ، وبالأسلحة نفسها التي استخدمها أعداؤها ، وكان الجدال أحد تلك الأسلحة .

- ونظراً لحدة الخلافات بين الإسلام وأعدائه ، ونظراً لامتداداتها إلى العقيدة والشريعة ، وجدنا الخاصية الجدلية تطبع معظم وسائل الدعوة ، فجرت المقارنات بين الإسلام والفلسفات المادية على أعواد المنابر ، وفي الكتب المدرسية والثقافية ، وفي الدروس الوعظية ، وفي المقالات الصحفية ، وفي الفنون والآداب . ولا تزال الأوضاع الجدلية سائدة ، لأن الصدام بين الإسلام والمادية والعلمانية والرأسمالية والاشتراكية والشعوبية ، والقاديانية والبهائية ، لا يزال محتدماً .

● هذه الحقائق تجعل دراسة الجدل ضرورية للداعية ، لكي يتمكن من نصرة الإسلام دون أن يتورط في الآثام التي قد يجره إليها المجادلون العلمانيون[2] .

---

(١) راجع الباب الأول من هذه الدراسة .

(٢) وكان أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق . م) الفيلسوف اليوناني الكبير قد اختار لمؤلفاته صيغة «المحاورات» . وفيها جرت المجادلات بين «سقراط» ـ أستاذه ـ وبين السوفسطائيين . ويقال إن أسلوب الحوار هو الذي ضمن لها القبول والانتشار ، على الرغم من السلبية التي لا تفضي بالحوار إلى مفاهيم واضحة محددة . والحق أن منهج الحوار والجدل والمناظرات يكفل للعمل الحيوية ويبث فيه الحرارة ، وبذلك يجذب المستمع أو القارئ إليه ، ويمهد السبيل لإقناعه بما يحمله إليه من توجهات وأفكار . ولقد رأى الفيلسوف الألماني الكبير «هيجل» أن الجدل ظاهرة كونية ؛ وحاول أن يفسر تطور التاريخ البشري استناداً إليها ، فالفكرة المعينة تسود فترة ، ثم تظهر فكرة أخرى مخالفة لها ، وتسعى للتغلب عليها ، وقد تتغلب عليها فعلاً ، وتسود في المجتمع بأن تتداخل مع الفكرة الأولى وتكوّن مركباً منهما تكون له السيادة . ثم تعود الكرَّة من جديد ، فتظهر فكرة مخالفة للفكرة السائدة ، وتجادلها ، وتنشئ مركباً جديداً تكون له السيادة . وهكذا يتطور التاريخ البشري . لكن فلسفة هيجل خاطئة ، لأنها تتجاهل وجود أفكار ثابتة دائمة لا تتغير .

معنى الجدال والجدل في لغة القرآن الكريم

● والجدال والجدل يأتيان بمعنى واحد في لغة القرآن الكريم . وقد ورد لفظ الجدال في آية الحج في قوله تعالى ﴿ . . . فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ... ﴾(البقرة:١٩٧) وورود لفظ الجدل في سورة الكهف في قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف:٥٤)

- ومعنى الجدل والجدال : الدفاع ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ (النساء:١٠٧) أي لا تدافع عن «طعمة بن أُبَيْرِق» اللص الذي سرق ، ثم حاول إلصاق التهمة باليهودي البريء «زيد بن السمين»[١] . وكما في قوله ﷻ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ (النحل:١١١) أي تدافع عن نفسها .

- وقد يكون الجدال «بالتي هي أحسن» فيكون حواراً رصيناً بين طرفين ، يريد كل طرف إثبات صحة رأيه ، دون أن يماري صاحبه أو يغضبه[٢] . وهذا هو الجدال المندوب شرعاً للمسلم . وقد أمرنا ربنا ﷻ فقال ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) وهذا يعني النهي عن الجدال بالأساليب السيئة التي تقوم على الأباطيل ولا تبتغي إثبات الحقائق .

● وصفوة القول ـ إذن ـ إن الجدال منه ما هو مأمور به شرعاً ، وهو الجدال المنضبط الرصين الذي يجب اصطناعه للدفاع عن الحق[٣] . وهو الذي يجب أن يتدرب الدعاة على إتقان ممارسته . ومنه ما هو مَنْهي عنه لأنه مُنْفَلِتٌ ، ولا يبتغي إثبات حق ، بل هي المغالطات والمراوغات الخبيثة المنكرة .

- والجدال بالتي هي أحسن لابد أن يستند إلى حقائق ، ويستخدم مصطلحات علمية . ولابد من تحديد موضوعه ، وهو ما يسمى «تحرير المسألة» عند الإسلاميين .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية رقم ١٠٧ ، وتفسير الجامع للقرطبي .
(٢) تفسير الطبري للآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة .
(٣) تفسير الطبري للآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة .

● ومن الملاحظ أن معظم المجادلات التي اندلعت بين المسلمين والغربيين في العصر الحديث لم تلتزم بأصول الحوار بالتي هي أحسن ، وكانت في معظمها مغالطات لا تقوم على أساس من الحقائق . ولذلك كان من اليسير على الكُتاب المسلمين الكبار دحض الاتهامات التي وجهها المستشرقون إلى الإسلام[1].

غايات الجدال والمناظرة

● إذن الغاية من جدال أهل الكتاب هي بيان الدين الحق ، لا المكابرة ، وإظهار البراعة في المغالطة كما كان يفعل السوفسطائية اليونانيون القدماء ، (في القرن الخامس قبل الميلاد) . وبتوجيهات القرآن الكريم والاقتداء بالنبي ﷺ تبلورت أصول للجدل والمناظرة بُغْيَة إصابة الحق ، ومعرفة الصواب ، وتعرية الباطل . وهذا هو ما تبرزه آراء أئمة المسلمين .

- يقول الشافعي رحمه الله : « ما ناظرتُ أحداً فأَحْبَبت أن يخطئ . وما في قلبي من علم إلا وَدِدْتُ أنه عند كل أحد ولا يُنسب إليّ »[2]. وقال أيضاً : « ما ناظرت أحداً إلا قلت : اللهم أَجْرِ الحق على قلبه ولسانه ، فإن كان الحق معي اتبعني ، وإن كان الحق معه اتبعته »[3].

- وقد سئل حاتم الأصم رحمه الله عن سبب انتصاره في الجدال والمناظرة فقال : « معي ثلاث خصال أظهر بها على خصمي . . أفرح إذا أصاب . . وأحزن إذا أخطأ . . وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه »[4].

● وهكذا صار الجدال منهجاً للحوار تحكمه قيم علمية وخلقية سامية ، تصونه عن الانحدار إلى هاوية المراء العقيم والسفسطة الممقوتة ، لكي يتمكن من كشف الحقيقة ودحض الباطل .

---

(١) انظر : د . عبدالرحمن بدوي ؛ دفاع القرآن ضد منتقديه ؛ وكتاب محمد قطب : الاستشراق ؛ وكتاب د . مصطفى السباعي : الاستشراق والمستشرقون ؛ وكتابي : نقد الاستشراق ، دراسات تطبيقية .

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٩١ .

(٣) نفسه ؛ ص ٩٣ .

(٤) د . عبد الرحمن بدوي ؛ تاريخ التصوف الإسلامي ؛ ص ٩١ .

الجدال بالحجة والبرهان

● ويعلمنا الإسلام أن الحوار المفيد للدعوة يجب أن يستند إلى حجج مُقْنعة ، عقلانية ، لا خطابية ، إذا جَرَى مع غير المسلمين . أما إذا دار بين طرفين مسلمين فيُستند أساساً إلى الكتاب والسُّنة ، وإلى جانبهما المنطق العقلي وحقائق العلم ، وبحسب متطلبات الموضوع .

● واحترام الحجة مبدأ أصيل في تراثنا الإسلامي . يقول الشافعي رحمه الله : « إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحةً ، فاحكوها عني ، فإني قائل بها »[1]. وفي العلوم الإسلامية تستند الحجج أساساً إلى القرآن الكريم والسُّنة المطهرة ، ولهذا يقول الشافعي : « أنتم أعلم بالحديث والرجال مني . فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني ، كُوفياً كان أو بَصْرياً ، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً »[2].

- وتفسير هذه الأقوال مرجعه أن الغاية القصوى من الحوار والبحث في المجالات الإسلامية لها قداستها لأنها دين ، وحقيقة علمية في آن . ورفضها أو إنكارها إثم عظيم ، والمكابرة في مواجهتها ردٌّ للهداية والحق ، واحتضان للضلال . وفي هذا يقول الشافعي أيضاً : « هذا مثل حاطب ليل يقطع حزمة الحطب ، فيحملها ، ولعل فيها أفْعَى تلدغه وهو لا يدري »[3].

- وقد أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب الجدال فيما ليس لهم به علم ، فقال تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٦).

● وكان المشركون يتذرَّعون بقضاء الله تعالى ومشيئته الماضية لتسويغ البقاء على الشرك ، فأنكر القرآن عليهم ذلك ولم يعتبره حُجة ، وقال ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه ؛ ص ٩٤ .

(٢) نفسه ؛ ص ٩٥ .

(٣) نفسه ؛ ص ١٠٠ .

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام:١٤٨،١٤٩).

- فلا جدوى من الحوار دون علم . ولا أحد يعلم مشيئة الله تعالى . ومن ثم لا يجوز عصيان أوامر الله استناداً إلى ظنون هشة ، كاذبة ، بأن الله تعالى شاءَ لهم ذلك .

● وعلى هذا كان على الدعاة - إذا دخلوا في حوار مع غير المسلمين - أن يتذرعوا بالحقائق العلمية ، والمعرفة الدقيقة بموضوع الخلاف ، والإحاطة الجيدة بفكر المخالفين وعقائدهم. هذا فضلاً عن المعرفة الوثيقة بالإسلام عقيدة وشريعة . ومن الجلي أن هذا لا يتحقق إلا بعد دراسات طويلة متعمقة ، ومثابرة على التعلم والاطلاع . وهذه الشروط نادراً ما نجدها في الكتابات الخطابية في مواجهة تهجمات الغربيين على الإسلام في مجالات الفكر والتاريخ والاجتماع والسياسة .

● والأمثلة كثيرة ، لكن مثالاً أو اثنين يكفيان لبيان هذا الواقع المؤسف .

المثال الأول : اعتبار المسألة بدهية واضحة بذاتها ولا تحتاج إلى حجة علمية أو برهان منطقي ، في حين أنها موضع إنكار وشك من الأطراف المخالفة . من ذلك أن أحد الكتاب المسلمين سلَّم تسليماً بأن «العلم لا يعارض الدين» ، دون أن يسوق أية أدلة تثبت ذلك أو تثبت مدى التعارض ومدى الاتفاق . ويذكِّرنا هذا الموضوع بكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في «دَرْء تعارض العقل والنقل» . لكن شيخ الإسلام لم ينف إمكان حدوث التعارض ؛ فإذا حدث سوء فهم في العلم ، أو خطأ في «النقل» ، فإن التعارض يقع . ولكتاب ابن تيمية عنوان آخر هو : «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»[1]. فقد يكون المعقول ، أو العلم ، غير صريح ، أو ملتبساً أو مظنوناً أو مشكوكاً فيه ؛ وقد يكون المنقول - وهو هنا الحديث الشريف - غير صحيح . عندئذ يقع التعارض .

---

(١) المطبعة الكبرى الأميرية ؛ ط ١ سنة ١٣٢١هـ .

● وفي العصور الحديثة وقع التعارض في مجال الفكر الفلسفي الذي أنكر وجود الله وكذب الأنبياء ، وأنكر وجود الجن والشياطين والملائكة ، وتبنى المعرفة التجريبية وأنكر الوحي كمصدر للمعرفة ، كما تبنى المنفعة كقيمة عليا للأخلاق البراجماتية . وغير هذا كثير في مجالات علم الفيزياء والأحياء ، والاجتماع والنفس والأنثربولوجيا . وقد تصدى العلماء المسلمون الكبار لهذه الموجات المتوالية من معارضة الدين ، وأَبْلَوا بلاءً حسناً ، لكن الكتابات الخطابية أخفقت ، وهذا الذي بين أيدينا مثال واحد لها .

● ومن القضايا التي أثارها المستشرقون زعمهم أن الإسلام لا يحترم مبدأ «السببية» لأنه يقر بوقوع المعجزات والخوارق . ورد كاتب مسلم على هذا الزعم قائلاً إن الآيات القرآنية التي تؤكد السببية كثيرة «لا يتسع المجال لاستعراضها». لكنه لم يذكر آية واحدة ، ولم يبرهن بالحجة أن المعجزات لا تتعارض مع السببية .

- والحق أن القرآن الكريم أكد أن الظواهر الاجتماعية ـ لا الفيزيائية وحدها ـ تخضع لسنن الله تعالى ؛ والسُّنن الإلهية هي القوانين التي تسير عليها الظواهر في اطراد وثبات . وأساس القوانين هو «السببية»[1].

● وقد كتب ابن القيم رحمه الله فصلاً رائعاً عن السببية جاء فيه ما يلي :

«وبالأسباب عُرفَ اللهُ . وبها أُطيعَ الله . وبها تقرب إليه المتقربون . وبها نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته . وبها نصر حزبه ودينه ، وأقاموا دعوته ، وبها أرسل رُسُلَه وشرع شرائعه . وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي ، ومهتدٍ وغَوي . فالوقوف معها والالتفات إليها والنظر إليها : هو الواجب شرعاً ، كما هو الواقع قدراً»[2].

---

(١) محمد التومي : «الجدل في القرآن الكريم ؛ سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ؛ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٢) مدارج السالكين ؛ جـ ٣ ص ٤٠٧-٤١٠ .

● ويؤكد القرآن الكريم السببية واطراد القوانين الطبيعية أو السنن الكونية ، فيقول الحق تبارك وتعالى عن مصير المنافقين الأسود ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب:٦٢) وعن نصر الله للمؤمنين على الكافرين قال ﷻ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح:٢٣) وعن الرافضين لدين الله استكباراً ، قال تعالى ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣).

● فلا توجد ذرة شك في أن الإسلام يؤكد السببية التي تبني عليها القوانين - أو السُّنن الكونية .

- وقد تعلم ابن خلدون على مائدة القرآن الكريم ، ونقل حقائقه ، فأنشأ علم الاجتماع الحديث .

● وأما المعجزات فليست نظاماً للكون ، ولكنها أحداث استثنائية يجريها الله تعالى على أيدي الأنبياء ، تأييداً لدعوتهم إلى توحيده .

- المثال الثاني : «استبدال قضية موهومة بالقضية الحقيقية» . القضية الحقيقية هي : «إلى أي مَدًى يفسح الإسلام المجال لحرية الفكر العقلي والعلمي ، مع التمسك بالنصوص الثابتة ؟ هل نصوص الكتاب والسُّنة تخنق الفكر وتنسف حرية العلم؟» هذه هي المسألة التي أكثر أعداء الإسلام اللجاج حولها . أما القضية الزائفة فهي : «هل الإسلام يحث على استعمال العقل ؟» لقد ساق كاتب مسلم ٣٤ نَصًّا قرآنياً لإثبات أن القرآن يحث على استعمال العقل ، وترك القضية الحقيقية المطروحة !

والإسلام يفسح المجال للعقل في «ما لا نص فيه» - وهو مجال واسع جداً ، يشمل المجالات العلمية للفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وسائر العلوم المادية والتقنية . وأوضاع المسلمين اليوم تشهد على مدى الحريات التي يتيحها الإسلام للعلم والعَقْل ، باستثناء الفلسفات المادية الملحدة ، وما يبنى عليها من نظم وتشريعات ، وما يعبر عنها من آداب وفنون .

- فهذه الكتابات الخطابية التي يصدرها مسلمون لا تفيد الدعوة ، بل تصرف الاهتمام عن القضايا الحقيقية إلى قضايا وهمية . وكان سلفنا الصالح يقومون «بتحرير المسائل» قبل مناقشاتها لتحديد موضوعها بدقة . لكن العصور الحديثة شهدت في أحيان كثيرة غياباً ملحوظاً للدقة في الجدال والحِجَاج والحوار باستثناء كوكبة الرواد الكبار من العلماء ، والله تعالى يقول ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة:١١١) ونحن المسلمين صادقون ، وعلى الحق ، فلا يجوز أن نقصر في البرهان على حقنا ، وعلى أباطيل مخالفينا ، والله تعالى معنا يهدينا ويوفقنا .

الخرافة بدل البرهان

● وعلى النقيض من توكيد القرآن الكريم للسببية ، وما يترتب عليها من اطراد القوانين الطبيعية والاجتماعية والسنن الكونية ، وأصول الجدال ، نجد المسيحية تستند في الإنجيل على المعجزات . وبسبب ذلك لا توجد براهين عقلية مقبولة على صحة ألوهية عيسى عليه السلام ، ولا على مبدأ التثليث الذي يرفضه كثير من المسيحيين أنفسهم .

نشر المسيحية بحد السيف

● وإذا لم يوجد البرهان ، يلجأ أهل الباطل إلى القوة . وهذا ما حدث في تاريخ الدعوة إلى المسيحية في أوربا .

- يقول ج . كرامبْ و إي جاكوب : «أما دخول المسيحية إلى بلاد النرويج فهو مثال لما يستطيعه ملك عديم الرأفة من تدابير عنيفة في سبيل الدين ، لأن الملك أولاف تريجنسيون (٩٥٥-١٠٠٠م) عقد النية على نشر المسيحية بين النرويجيين بحد السيف ، وهبطت جنوده على كل إقليم من الأقاليم النرويجية واحداً بعد آخر في غير هوادة أو رحمة»[1]. فمن رفض المسيحية قتل ، ومن قبلها مذعناً ، تُرك وشأنه . وكانت ضحايا تلك الحملة بالآلاف !

---

(١) راجع كتابهما : تراث العصور الوسطى ؛ جـ ١ ص ٤٦ .

- هذا مثال واحد . والأمثلة الدموية عديدة . وعلى الرغم من ذلك يجسرون على اتهام المسلمين زوراً بنشر الإسلام بحد السيف . وينقل هذا الاتهام مؤرخ عن مؤرخ ، ومستشرق عن مستشرق ، دون نقد أو مراجعة .

● واندلعت المجادلات في العصر الحديث بين المسلمين والغربيين ، دبلوماسياً وسياسياً ، ودينياً . وأصبح الجلوس إلى مائدة المفاوضات هو السبيل المفضل لحل المشكلات المعقدة . ويعتبر أحمد ديدات أكثر العلماء المسلمين جدالاً مع أهل الكتاب في العصر الحديث ، وكثيراً ما اشتبك مع أباطرة المنصرين في الولايات المتحدة الأمريكية[1]. وأسلوبه يمثل تطوراً مهماً في الخطاب الديني الإسلامي .

اجتناب سب المخالفين

● وينهانا القرآن الكريم عن سَبِّ المشركين لكيلا يسبُّوا الله تعالى . فيقول ﷻ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام:١٠٨) فهذه ـ إذن ـ قاعدة منهجية يجب مراعاتها في كل الأنشطة الدعوية ، وفي الجدال العنيف خاصة .

- يقول المودودي رحمه الله إن على المسلم أن يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام: «بكل جرأة وحماسة ، ولكن بدون أن يؤلم غيره ، ويجرح قلبه ، أو يشاتمه ، أو يلاعنه ، أو يتحامل على عقائده ، أو يحول بينه وبين مزاولته طقوس دينه ومراسمه ، أو يكرهه على اعتناق دينه قبل أن يقنعه بصحته»[2].

- لكن أصحاب المذاهب الأجنبية لم يتأدبوا بهذا الأدب في تعاملهم مع ديننا وكتابنا ورسولنا ﷺ . وأوغلوا في السباب الهابط المسف إلى أحط الدرجات . يقول «إميل دِرْ مِنجمْ» : «لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة

---

(١) أحمد ديدات ؛ بين الإنجيل والقرآن ؛ كتاب المختار ؛ (دون تاريخ) .

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ؛ ص ٤١ .

الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة . ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف . فمن البيزنطيين من أوْقَرُوا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم ـ فيما خَلا جان داماسيين ـ مؤونة دراسته»[1]. ثم أورد سلسلة من السِّبَابِ المقذع الغليظ الذي ردده الكتاب الغربيون ، يعف قلمي عن تسطيرها هنا . ويعترف «وات» المؤرخ الذي كتب كتاباً عن «محمد في المدينة» أنه من بين جميع رجال العالم العظماء لم يُصَوَّر أحد بمثل هذه الصورة القبيحة ، ولم يُؤذَ أحد كما صُور رسول الله وكما أوذي[2].

● والحق أن تحسناً طرأ على كتابات الغربيين ضد الإسلام ورسوله منذ منتصف القرن العشرين تقريباً ، لكنهم لم يتوقفوا عن الاتهامات الرعناء ضد الرسول ﷺ وضد الإسلام . وما قاله الجنرال الأمريكي «بوكين» في نهاية أكتوبر سنة ٢٠٠٣ لن يكون آخر السباب المنحط . وللأسف ، رفضت الإدارة الأمريكية اتخاذ موقف من رجلها العسكري .

● وموقف الطرف غير المسلم في الجدال يؤثر على نوع الجدال المشروع . قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

– ويقول القرطبي في تفسيره للآية إن الجدال بالتي هي أحسن في هذه الآية معناه دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ، بالحجة ، «لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة»[3]. ويُستثنى منهم ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ (العنكبوت:٤٦) وهم المعاندون الذين قالوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ ﴾ (آل عمران:١٨١) و ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ (المائدة:٦٤) وغير ذلك من الأقاويل الفاجرة .

---

(١) د . محمد حسين هيكل ؛ حياة محمد ؛ مكتبة النهضة المصرية ؛ ط ٩ ص ١٠ .

(٢) د . محمد ماهر حمادة ؛ مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ ؛ ص ٥٥ .

(٣) تفسيره الآية في «الجامع».

● وينصح القرآن الكريم الداعية المسلم أن يقول لأهل الكتاب الذين أسلموا ﴿ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦) فما داموا قد أسلموا فقد صاروا كسائر المسلمين ، يؤمنون بالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى للعالمين لا للعرب وحدهم . وبعد إعلان إسلامهم صار معبودهم هو إلهُ المسلمين ، لا فرق بينهم . والتوراة تجعل الإله خاصاً باليهود فقط . فالآية الكريمة تنبه الداعية المسلم إلى إعلان العبودية لرب العالمين ، رب العرب والعجم واليهود والنصارى والمجوس وسائر الأجناس والأمم . وهذا الإعلان يُشعرهم بالطمأنينة والمساواة ، وأن الإسلام لا يفرق بين مسلم ومسلم بسبب ما كان عليه من عقائد قبل اعتناق الإسلام ، وبهذا يستقر المهتدي الجديد على عقيدة التوحيد ، ولا يتردد بين الإسلام ودينه القديم ؛ وهذا هو الفلاح الذي يحرص عليه الداعية المسلم .

عقد المقارنات

● ومن قواعد الجدال عقد المقارنات بين الإسلام وبين الفلسفات والأديان التي تزاحمه ، كالعقلانية والوضعية والماركسية واليهودية والمسيحية . وهذا يتطلب معرفة المقولة المركزية لكل مذهب ، ثم مقارنتها بالمذهب الإسلامي المقابل لها .

● خذ مثلاً مبدأ «رينيه ديكارت» (١٥٩٦-١٦٥٠م) القائل : أنا أفكر إذن أنا موجود . فبهذا المبدأ يريد الفيلسوف الفرنسي الكبير أن يخرج من الشك إلى اليقين بوجود ذاته . والتفكير يثبت ذلك ، لأن العدم لا يفكر . نقول إن الإسلام لا يسمح بتسرب مثل هذه الشكوك في الفكر الإنساني بحيث تصل إلى الشك في كل شيء ! وهذا هو ما وصلت إليه الفلسفة العقلية بعد عناء طويل . فالله تعالى موجود ، ولا يمكن إنكار وجوده ، لأنه هو خالق كل موجود ، ولا تفسير لوجود الإنسان والحيوان والجماد إلا بالتسليم بوجود الخالق .

● وبعد أن شرَّقت العقلانية وغَرَّبت ، أكد كانط Kant فيلسوف ألمانيا الأكبر (١٧٢٤-١٨٠٤م) أن العقل الإنساني ليس له أن يتجاوز مجال الحواس ، وأنه إذا

بحث في قضايا خارج نطاق الحواس فلابد أن يتورط في المتناقضات ، كأن يثبت أن الكون له بداية ، وأنه ليس له بداية ، ببراهين متساوية في قوتها[1]. وأن يثبت الجبرية والحرية بالبرهان العقلي[2]. وهذا يؤكد حاجة العقل البشري إلى مصدر آخر للمعرفة . وفي الإسلام اعتراف بدور العقل في مجاله المشروع ، ولكن الوَحْي هو المصدر الأعلى الحاكم في كل المجالات ، بحيث إذا حدث تعارض بين الوحي والعقل كانت كلمة الوحي هي العليا .

● ولسوف نجد أن الإسلام يفوز بثقتنا في كل مقارنة . وبهذا نكسب القارئين أو السامعين لصف الإسلام .

الجدال بالباطل

● وتبين آيات القرآن الكريم أن كثيراً من الناس يجادلون بالباطل ؛ وهذا هو نقيض الجدال بالتي هي أحسن . فيقول ﷻ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ (الحج:٣) ويقول ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (لقمان:٢٠) ويقول عز من قائل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر:٥٦) ويقول ﷻ ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ (غافر:٤) ويقول ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (غافر:٥).

وتبين هذه الآيات القرآنية الكريمة أن أساس الجدال ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (الأنعام:١٥٢) هو : العلم ، أو سلطان العقل وحُجيَّته . والكافرون بالله ، الذين

---

(1) Critique of Pure Reason; p . 260.

(2) Ibid; p . 270.

واجهوا أنبياءَ الله ، هم الذين جادلوا بالباطل ، بُغْيَة دَحْضِ الإسلام ـ دين التوحيد ودين الحق . فلم يكن مشركو مكة هم أول من جادل بالباطل لدحض الحق . ولقد حاول الذين كفروا قتل الأنبياء حين أعوزتْهم الحجة ، وافتقدوا الأساس العقلي الذي لا يقتنع بغيره العقلاء . وكان الكبر هو السد المنيع بين أولئك الكفار وبين دين التوحيد . فالعقل البشري بفطرته يرفض الوثنية وتعدد الآلهة ولا يجد مسوغاً للدفاع عنها .

● ومن أشهر من مارس الجدل بالباطل من أجل الانتصار على الطرف الآخر بالباطل السوفسطائية اليونانيون القدماء الذين عاشوا في القرن الخامس قبل الميلاد ، عصر الفيلسوف الشهير سقراط ، وجادلوه ، وغالطوه ، بُغْيَة إثبات أنه لا وجود للحقائق ، بل الحقيقة هي ما يريده الأقوى ، وأن الجدل يمكن أن يثبت أي شيء وينفي أي شيء .

– وفي محاورة الجمهورية لأفلاطون عَرْضٌ لبعض تلك المحاورات أو المجادلات . ففي بداية «الجمهورية» يجادلون سقراط حول «العدالة» ، على امتداد الكتاب الأول ، لكي ينتهوا إلى لا شيء ! ويقرر سقراط أنه لم يعلم شيئاً على الإطلاق : « إذْ أنني ما دمتُ لا أعلم ما هي العدالة ، فإني لا أعلم ـ بالأحرى ـ إن كانت فضيلة أم لا ، ولا أستطيع أن أجزم إن كان العادل سعيداً أم شقياً »[1] .

نعم للحوار ، لا للإسفاف !

● ولقد رفض المسلمون كل انحطاط في الحوار ، وفَنَّدُوه ، لكنهم لم يتورطوا في الشتائم المُسِفَّة والاتهامات الزائفة ، والإهانات البذيئة ، واحترموا ضوابط المنهج القرآني الذي ينهى عن سب المخالفين ، على الرغم من أنهم سَبُّوا الله ورسوله ، ولا يزالون يفعلون .

– ولقد يقال إن المسلمين ترفعوا عن سب موسى وعيسى عليهما السلام لأنهم يؤمنون بهما بحكم القرآن الكريم . غير أن المسلمين لا يؤمنون بـ«متى»

(١) جمهورية أفلاطون ؛ ترجمة د . فؤاد زكريا ؛ الكتاب الأول ؛ الفقرة ٣٥٦

و«يوحنا» و«لوقا» و«يهوذا» و«إرميا» و«حزقيال» ، وكان من الممكن أن يكتبوا عنهم بالأساليب المنحطة ذاتها التي كتب بها الغربيون عن رسول الله ﷺ ، في القديم والحديث .

● لكن هذه العفة اللسانية الرفيعة لا تمنعنا نحن المسلمين من بيان الخطأ في أية ديانة تزاحم الإسلام . وهذا ما حدث أحياناً . فقد تطاول قس مصري على الإسلام وحاول التشكيك في السُّنة النبوية ، فتصدى له الشيخ محمد أبو زهرة رحمة الله وأفحمه ، وأظهر ضعف الإسناد في نصوص الأناجيل ، بل عدم وجودها ، الأمر الذي يشكك في نسبة الأناجيل إلى المسيح عليه السلام . فَنَّدَ أبو زهرة اتهامات القس إبراهيم سعيد بكل موضوعية وإنصاف ، وأظهر عوارها وتهافتها إظهاراً قوياً حاسماً ، دون أن يهبط إلى حضيض الشتائم الذي وَلَغَ فيه كثير من كتاب الغرب المتعصبين . [1] وهكذا قدم أنموذجاً ممتازاً للدعاة في تصديهم لتهجمات القسس والرهبان والحاخامات على الإسلام .

● وحتى في عصر الاحتكاك العنيف بين المسلمين والنصارى في الأندلس ـ في القرن الخامس الهجري ـ لم يتجاوز الإمام ابن حزم ـ رحمه الله ـ في نقده للنصرانية حد التكذيب ، كقوله : «فما كان «يوحنا» و«متى» و«بولس» إلا كفاراً كاذبين ، وما كانوا قط من صالحي الحواريين» [2].

الحوار مع أهل الكتاب

● وكان النبي ﷺ يواجه أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ فجر الدعوة . وقد نزلت في ذلك آيات بينات تنظم الحوار معهم ، من ذلك قوله تعالى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ

---

(١) راجع كتابه : محاضرات في النصرانية ؛ الفقرات من رقم ٥٨ إلى رقم ٦٢ .

(٢) راجع كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل ؛ تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر ودكتور عبدالرحمن عميرة ؛ نشر دار الجيل ؛ بيروت (بدون تاريخ) ؛ جـ ١ ص ١٢٧ .

أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ (الشورى ١٥)
قال ابن عباس ومجاهد ﷺ : الخطاب لليهود[1]. فالحق تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بأن يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يستقيم في فكره وعمله كما أمره الله تعالى ، وينهاه عن اتباع أهوائهم ، مع الإعلان عن إيمانه بما أنزل الله تعالى من الكتب على أنبيائه السابقين صلوات الله وسلامه عليهم . فلا يجعل مخالفتهم له سبباً في رفض الإيمان بما أنزل من كتب على أنبيائهم . وهو يُعْلنهم بأنه لن يظلم أحداً منهم ، لأنه مأمور بالعدل بينهم . وإذا مَضَوا في المخالفة والعناد ، فلنا أعمالنا ولهم أعمالهم ، فكل إنسان مسئول عن عمله أمام الله تعالى ، ولا يبقى بيننا مجال للجدال والمحاجة مادمتم معاندين ومصرين على الكفر بما جئتكم به من كتاب ، ويوم القيامة نلتقي أمام الله ليحكم بيننا . لقد انتهى الجدال بالتي هي أحسن ، وبذلك ينتهي الحوار .

- وفي هذه الآية الكريمة قواعد مهمة في منهج الدعوة الموجهة لأهل الكتاب .

١- فالداعية المسلم مطالب بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن ، مع الاستقامة على أمر الله تعالى ، ليكون الداعية أسوة حسنة في فكره وسلوكه .

٢- والداعية المسلم مأمور بأن يعلن إيمانه بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رُسله. وهذا الإعلان يمهد السبيل إلى قلوب المخاطبين من أهل الكتاب . لكن هذا الإيمان لا يعني مجاراتهم في أهوائهم التي أفضت إلى إدخال كلام البشر ضمن كلام الله المنزل ؛ وهم يعترفون اليوم بهذا الخلط رسمياً ، بعد أن أنكروه دهراً طويلاً .

٣- وعلى الداعية أن يعلن أن الإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية في إقامة العدل ؛ فأهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين يتمتعون بالعدل ، لأن الله أمر المسلمين بذلك . وهذه الحقيقة تيسر للداعية طريقه إلى عقولهم .

---

(١) القرطبي ؛ الجامع ؛ تفسير الآية ١٥ من سورة الشورى .

٤- وعلى الداعية أن يعرِّف المخاطبين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن الله الذي يؤمن به المسلمون ليس إلهاً عنصرياً خاصاً بهم ، كما هو الحال عند اليهود ولكنَّه ربُّ العالمين ، سواءً رضي بذلك خَلْقُه أو لم يرضوا ، ويتلو عليهم من آيات القرآن ما يؤكد ذلك ويبينه خير بيان .

٥- والإسلام يحمِّل كل إنسان المسئولية عن نفسه ، ويعفيه مما يفعله غيره . فالمسئولية فردية . وذلك هو أساس العدل . وإذا عاند أهل الكتاب ولم يؤمنوا ، فهم المسئولون عن ذلك .

٦- وعلى الداعية أن يكف عن الجدال إذا استوفى عرض الإسلام ؛ ولا يمعن في الجدال الذي يتحول إلى مراء عقيم .

٧- وعلى الداعية أن يتذكر أن الهدى بيد الله وحده . والحساب في نهاية المطاف أمام الله تعالى يوم القيامة ، فلا يحزن إذا أنكر المخالف وعاند وأصر واستكبر استكباراً .

والسيرة النبوية تشهد بأن النبي ﷺ لم يكف يوماً عن الجدال بالتي هي أحسن ، في سبيل الإسلام . أَليست المفاوضات ـ أو المراوضات ـ التي أجراها النبي مع اليهود في المدينة ، ومع زعماء غطفان من حلفاء قريش واليهود ، وعلى رأسهم عيينة بن حِصْن قد اتخذت شكل محاورات وجدال؟ وقد ذهب ﷺ سنة أربع هجرية إلى بني النضير من اليهود ، يفاوضهم ، ويستعينهم في دية قتيلَيْن . وقد أعلنوا الموافقة ، بعد جدال لم يسجله التاريخ . لكن من الطبيعي أن تكون قد جرت بين الطرفين مفاوضات أو مجادلات .

إلامَ ندعو أهل الكتاب؟

● ويحدد القرآن الكريم العقيدة الدينية التي يجب أن ندعو أهل الكتاب إليها فيقول رب العزة لنبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا

إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤) .

- وقد عمل النبي ﷺ والمسلمون من بعده بهذه الآية الكريمة ، فدعوا أهل الكتاب إلى عقيدة التوحيد ، فتقبلها بعضهم ، ورفضها البعض الآخر . وكان المسلمون هم الحكام السياسيين ، أصحاب السلطان ، وعلى الرغم من ذلك لم يحاولوا قهر أحد على اعتناق التوحيد ، امتثالاً لهذه الآية الكريمة ، ولقوله تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦) وعاش أهل الكتاب في وسط المجتمع المسلم في أمن وأمان ، وحرية ، يمارسون شعائر دينهم ، وينشطون في مجالات التجارة والمال ، إلاَّ في أوقات استثنائية سادها التوتر والاضطراب .

- وجرت مجادلات عديدة بين الطرفين في الشام واليمن ومصر والأندلس ، فلم يستعمل المسلمون سلطانهم لقمع المتجادلين من أهل الكتاب . وتحولت المحاورات إلى جدال عنيف أحياناً . وسجل التراث الإسلامي الكثير من ذلك ، فكان الجدال مكوناً أساسياً في تراثنا الإسلامي القديم والحديث . ولعل من أبرز المؤلفات في مجادلة أهل الكتاب كتاب «الفَصَل في الملل والأهـواء والنحـل» لابن حزم الظاهري رحمه الله . لكن أصل الجدال والأنموذج الأعلى له جدال رسـول الله ﷺ . وعلى الدعاة أن يتدارسوه ليسيروا على قواعده وأصوله .

كشف تناقض الطرف الآخر مع نفسه

● ولقد دخل ﷺ «المِدْراس» ـ وهو المكان الذي يتدارس اليهود فيه التوراة ، فسأله النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : «عَلَى أيِّ دينٍ أنت يا محمد؟ فقال لهما رسولُ الله ﷺ : عَلَى مِلَّةِ إبراهيم ودينِهِ». قالا : فإن إبراهيم كان يهودياً . فقال لهما رسول الله ﷺ : «فَهَلُمَّ إلى التوراة ، فهي بيننا وبينكم». فَأَبَيَا عليه[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ١ ص ٥٥٢ ، ٥٥٣

● فكان ﷺ يريد الاحتكام إلى كتابهم . ولكنهم رفضوا لعلمهم أنه لا يقول إن إبراهيم كان يهودياً .

● وهذا المنهج لا يزال صالحاً اليوم . ففي مسائل عديدة يخالف اليهود والنصارى كتبهم مخالفات حادة ؛ وبعضهم ارتد ونبذ التوراة والإنجيل . كذلك يخالف الأوربيون والأمريكيون المبادئ التي تقوم عليها فلسفاتهم ودساتيرهم مخالفات جسيمة في تعاملهم مع المسلمين . وقد ثارت في شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٤هـ نوفمبر سنة ٢٠٠٣م ـ مشكلة أسْرَى «جوانتانامو» الذين أسَرَتْهم أمريكا في أفغانستان وترفض تطبيق القوانين الأمريكية والدولية عليهم ، وترفض محاكمتهم ، أو سماع أقوالهم ، وتوكيل محامين للدفاع عنهم ونجح «أوباما» حين وعد بتصحيح ذلك .

لكن محكمة الاستئناف الفيدرالية في سان فرانسيسكو قضت بأن الأشخاص الذين تحتجزهم السلطات الأمريكية للاشتباه في أنهم إرهابيون لهم الحق في الحصول على تمثيل قانوني والمحاكمة تحت طائلة القانون الأمريكي . وقضت بمثل هذا الحكم محكمة استئناف أخرى في كاليفورنيا[1]. وتحت ضغوط داخلية وخارجية بدأت السلطات الأمريكية تتحدث بلغة أقل تشدداً ، وشرعت تبحث حالات خاصة لمساجين من جنسيات غربية ، توطئة للإفراج عنهم . وأفرجت عن بعضهم في يوليو سنة ٢٠٠٤م وقد وضع «أوباما» خطة لإنهاء تلك المأساة .

وتسعى أمريكا لاستثناء جنودها من حكم القوانين التي تجرم كثيراً من الأفعال الحربية ، لكي يعيثوا فساداً دون رادع . وتخالف الإدارات الأمريكية الكثير من المُثُل الأمريكية نفسها . وكانت الجالية المسلمة عُرْضَةً لاعتداءات إجرامية عديدة ، مارستها السلطات بحكم ما يسمى قانون الإرهاب وقانون الأدلة السرِّية . وهما قانونان غير شرعيين لتنافيهما مع المواثيق الدولية لحقوق الإنسان .

---

(١) نشرت الخبر صحف يوم ٢٠٠٣/١٢/٢٠ .

● وقد نجح المسلمون في أمريكا في كسب شطر كبير من الرأي العام الأمريكي اعتماداً على تذكير الجماهير بالتناقض بين المثل الأمريكية وتطبيقات الإدارة الأمريكية .

● وعلى الدعاة أن يستفيدوا من السُّنة المشرفة في الجدال ، ومن ممارسات إخوانهم المعاصرة في أمريكا وأوربا . وهذا هو التطوير المفيد المنشود للخطاب الديني .

الرسول يجادل المشركين

● وقد سجل ابن هشام العديد من المجادلات بين النبي وبين رُسل قريش إليه بشأن «الحديبية» . وقد احتدم جدال عنيف بين الطرفين حين قال ممثل قريش «عروة بن مسعود الثقفي» : «يا محمد! أَجَمَعْتَ أَوْشَابَ الناس (يعني أخلاط الناس) ، ثم جِئْتَ بهم إلى بَيْضَتِك لِتَفُضَّها بهم . . . وايْم الله ، لَكَأَنِّي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً !

- فَرَدَّ أبو بكر الصديق على إهانته قائلاً : امْصُصْ بَظْرَ اللاَّت !! أنحن ننكشف عنه؟! فكانت إهانة بإهانة ، والبادئ أظلم .

- وكان عروة بن مسعود عنيفاً عدوانياً في ألفاظه وحركاته . فكان يتناول لحية رسول الله بيده وهو يكلمه ، و «المغيرة بن شعبة» يضربه عليها ويقول : اكْفُفْ يدك عن وجه رسول الله ﷺ [1].

والعلماء المسلمون جادلوا أهل الكتاب

- فهذا جدال عنيف ، جرى فيه سباب وإهانات من قِبل المشركين ؛ فكان جدالاً بالتي هي أسوأ . وكان من حق المسلمين أن يهينوا من أهَانهم ؛ كما فعل أبو بكر الصديق ، والمغيرة بن شعبة ﷺ ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠).

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ٣١٣

● وعلى سُنة رسول الله ﷺ ، وعلى هَدْي كتاب الله تعالى سار الراشدون وسائر الصحابة ﷺ ، يحاورون ويجادلون في سبيل نشر الإسلام في العالمين . ولولا الخوف من الإطالة لأوْردت عشرات المجادلات بالتي هي أحسن، وبالتي هي أسوأ!

● وكتب العلوم الإسلامية تطفح بالمناظرات والمجادلات بين الفقهاء والأئمة وأتباعهم ، وبين الملوك والأمراء والقادة العسكريين . ومع انتشار الإسلام واختلاط المسلمين وغير المسلمين في الشام واليمن ومصر والأندلس ، جرت مئات المجادلات بين علماء المسلمين وبين حاخامات اليهود ورهبان النصارى . واحتفظ لنا التاريخ بالكثير منها .

● ومن أوسع المراجع في الجدال بين الفرق الإسلامية مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وخصوصاً كتابه : «بيان تلبيس الجهمية» الذي بلغ عدد صفحاته ١٢١٦ صفحة من القطع الكبير . وهو يشرح مذهب أهل السُنة في مواجهة الجهمية والقائلين بالقدر ، والمعتزلة . ويُعد كتاب : «المُحَلَّى» لابن حزم من أكثر الأعمال الإسلامية ميلاً إلى الجدال مع المخالفين من الفقهاء . كما يُعد كتاب «الفُصَل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم أيضاً من أعنف كتب الجدل ضد الفلاسفة واليهود والنصارى[1].

- وكتب الجاحظ (عمرو بن بحر- ٧٧٥-٨٦٨م) «رسالة الرد على النصارى».

● وكتب اليهود والنصارى الكثير في معارضة الإسلام .

المفاوضات السياسية

● ولما اشتد على المسلمين البلاء بسبب حصار الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق بعث النبي ﷺ إلى زعماء غَطَفان ـ عيينة بن حصن والحارث بن عوف ـ مَنْ يفاوضهما على فك الحصار نظير ثلث ثمار المدينة . ثم جَرَى بعد ذلك جدال بالتي هي أحسن بينه عليه السلام وبين الصحابي الجليل سعد بن معاذ والصحابي الجليل سعد بن عبادة ﷺ ، واستشارهما قبل أن يعقد الصفقة مع غطفان .

---

(١) ابن حزم توفي سنة ٤٥٦هـ .

- قال الصحابيان الكبيران للنبي : يا رسول الله ! أَمْراً نُحبه فنَصْنَعُه ، أم شيئاً أمَرَكَ الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنَعُه لنا؟

- قال عليه الصلاة والسلام : «بل شيء أصنَعُه لكم . واللهِ ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ قد رَمَتكم عن قَوْسٍ واحدة ، وكالَبوكُم من كل جانب ، فَأَرَدْتُ أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرٍ ما».

- فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ! قد كُنَّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاَّ قِرًى (أي ضيافة) أو بيعاً . أَفَحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟! واللهِ مالنا بهذا من حاجة ! واللهِ لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللهُ بيننا وبينهم».

- قال رسول الله ﷺ : «فأنت وذاك». يعني : لك ما تشاء .

- وتناول سعد بن معاذ الصحيفة ، فمَحَا ما فيها من الكتاب ، ثم قال : «لِيَجْهَدُوا علينا»[1] .

● اقتبستُ هذا الجدال بطوله لأبيِّنَ أن الجدال بالتي هي أحسن كان منهجاً أساسياً في معالجة أمور المسلمين فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين غيرهم . وهذا شيء طبيعي ، لأن الحياة البشرية في كل زمان ومكان تحتاج إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن .

متى يجب وقف الجدال ؟

● ويوجه ربنا ﷻ نبيه ﷺ والدعاة من أتباعه فيقول ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي اليهود والنصارى والمشركون العرب ـ ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠) .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ جـ ٢ ص ٢٢٣ . وكالبوكم يعني : اشتدُّوا عليكم .

- فالحق تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ وأتباعه من الدعاة الذين يدْعُون أهل الكتاب والمشركين إلى الإسلام أن يضعوا حَدّاً للجدال بأن يعلنوا أنهم أسْلَمُوا وجوههم لله تعالى ، وأن يسألوا أهل الكتاب والمشركين : ءَأَسْلَمتم؟ فإن قبلوا الإسلام فقد هداهم الله ، وإن عاندوا وكابروا ورفضوا الإسلام فتلك مسئوليتهم ، يتحملون أوزارها . وبهذا لا يسمح الداعية المسلم للجدال أو الحِجَاج بأن يتحول إلى لجاج أو مراء عقيم[1].

البيان المبين مسئولة الداعية

إن الداعية ليس مسئولاً عن هداية المدعوين . هذا مبدأ راسخ في شريعة الإسلام . إنه مسئول عن القيام بالدعوة على خير وجه ممكن ، أما الهداية فلله وحده . وكانت هذه هي مسئولية الرسول ﷺ ؛ وهي مسئولية الدعاة من أتباعه ؛ وفي هذا وردت آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(المائدة:٦٧) وقوله تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾(المائدة:٩٢)

- وفي هذه الآيات أيضاً تقرير مسئولية البلاغ المبين على عاتق النبي ﷺ ، بقدر ما يسعه من البيان . وهي أيضاً مسئولية الدعاة من أتباعه . وعلى كل داعية أن يبذل أقصى ما يستطيع من الجهد في التعلم والتحصيل والبحث والتحقيق والتدقيق لكي يؤدي مهمته العظيمة التي هي : «البلاغ المبين». وكل تقصير أو تقاعس من جانب الداعية هو إثم سوف يحاسب عليه .

- فهذه الآيات الكريمات تسقط عن الداعية مسئولية وتحمّله مسئولية . وفي هذا عدالة إلهية ، لأن هداية المخاطبين ليست في مقدور الداعية ؛ ولذلك أُسقطت مسئوليتُها عن كاهله . لكن «البلاغ المبين» في مقدوره فحُمِّلَ المسئولية عنه . وهذه

---

(١) راجع تفسير الآية في «الجامع» للقرطبي .

المسئولية بطبيعة الحال بقدر طاقة الداعية ، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦) وعليه أن يطبق المنهج الدعوي ويطوره لبلوغ هدفه النبيل .

- فلو أدرك الدعاة هذه المبادئ الدَعَوية لما شاهدنا صُنُوف التقاعس عن أداء أوجب الواجبات . وكلنا يعلم أن كثيراً من الوعاظ والخطباء والمدرسين والعاملين في حقول الإعلام الإسلامي ، يتقاضون رواتبهم دون أن يعملوا بها . ويمضي الواحد منهم سنوات عديدة دون أن يتقدم في دراسة الإسلام وعلوم الدعوة والإعلام والبلاغ المبين بوصة واحدة . وينظر بعض العاملين في حقل الدعوة إلى وزارات الأوقاف والشئون الدينية على أنها تكية ! وقد ترهَّلت أقسام عديدة وإدارات أكثر عدداً . فلم تعد قادرة على تحريك أجهزة الدعوة . وحاولت بعض الجمعيات الإسلامية النهوض بدور دَعَوي خارج الإطار الرسمي الوظيفي ، فتصدَّى لها الموظفون وأحبطوا عملها بالاستيلاء على مساجدها ومكاتبها ، كما حدث للجمعية الشرعية في مصر . وهذه نكسة كبرى للخطاب الديني ، أو تطوراً سلبياً مدمراً له .

* * *